المجلة التاريخية المصرية

المجلد ٣٧/سنة ١٩٩٠

الناشـــر
مكتبة الدار العربية للكتاب
شارع الطيران : الحى السابع - مدينة نصر
تليفون : ٢٦٣٩٨٥١ - ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

المــدير المســئول : **محمد رشــاد**
التصميم والغــلاف : **محمد حجى**
التصحيح والمراجعة : **محمد فتحى**

التوزيع فى مصر
الدار المصرية اللبنانية
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس : ٣٩٠٩٦١٨
برقياً : دار شادو - ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

المراسلات والتوزيع الخارجى
أوراق شرقية
بيروت - النويرى - شارع العريسي
ص . ب : ١١/٣٠٣١ - هاتف : ٦٣٠٧٩٤ - ٦٤٤٤٢٢ - برقياً : DISTLEVAN
المدير المسئول : **محمود عطوى**

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ولاتعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب - ٩٤٤٠/ ٩٣
الترقيم الدولى : 9 - 11 - 5366 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
١٤١٤ هـ = ١٩٩٣م

صف وطبع بمكتبة ومطبعة الخانجى ص . ب - ١٣٧٥ القاهرة

المجلة التاريخية المصرية

تصدرها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المراسلات . الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحي
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع عبد السلام عارف
"البستان سابقاً" القاهرة - تليفون / ٧٤٩٢٥٢

بسم اللہ الرحمن الرحیم

دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية

مقدمة

تتناول هذه الدراسة عدة نقاط أساسية تشكل فى مجملها قضية متكاملة من خلال العلاقة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية خلال عهد اليعاربة ١٦٢٤ - ١٧٤٤ ، ولما كانت دولة اليعاربة تشغل مساحة حضارية هامة في عمر التاريخ الإنساني عمومًا والتاريخ العربي على وجه الخصوص ، فإن ما كُتب عنها لا يتناسب بأي حال ودورها الكبير ، سواء فى طرد البرتغاليين وتعقبهم في كل البحار والمحيطات الشرقية ، أو في وضع الأسس القوية لمقومات الدولة الحديثة بكل ملامحها السياسية والاقتصادية والعسكرية .

لقد جاءت هذه الدراسة نتيجة لما استرعى انتباهي من علاقة وثيقة بين الحروب من أجل الوحدة ، والحروب من أجل التحرير ، حيث أدرك ناصر بن مرشد أن طرد البرتغاليين من عمان لن يتحقق إلا بقدر ما تحققه الألفة والتكاتف بين العمانيين جميعاً ، وهكذا خاض الرجل حربًا ضارية في جبهتين لا تقل إحداهما أهمية عن الأخرى .

ثم تستعرض هذه الدراسة تلك العلاقات الوثيقة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية ، وهي استراتيجية ثابتة آمَنَ بها ناصر بن مرشد ، وعمّقها سلطان بن سيف من بعده ، مما نجم عنها نتائج إيجابية على كل المستويات : العسكرية ، والاقتصادية ، والدولية .

إنّ قضية التوازن الدولي في منطقة الخليج قد تحققت بفضل هذه الاستراتيجية ، ومن ثَمّ عادت عمان لتؤدى دورها الحضاري في حركة التاريخ الإنساني .

ثم تتناول هذه الدراسة الكثير من الجوانب التي عمقت هذه السياسة إلى أن عادت الحروب الأهلية لتطل برأسها من جديد في ظل عدد من الأئمة الذين غابت عنهم هذه الحقيقة الأساسية ، ودخلت البلاد مرحلة أخرى مع أوائل القرن الثامن عشر ، حيث عادت الحروب الأهلية لكي تبدد كل الأعمال الكبيرة التى حققها ناصر ابن مرشد وسلطان بن سيف وغيرهما .

وقد نالت الحروب الأهلية ، من هيبة الدولة ومكانتها ، وبدأت الأطماع الأجنبية تظهر سافرة الوجه في شكل غزو فارسي أوشك على أن يقضي على كل مظاهر الدولة الحديثة .

وفي غيبة التجربة التاريخية عادت الحرب أكثر شراسة وأشد عنفًا ، إلى أن تهيأ للبلاد أن يخرج من بين أبنائها من أعاد لها هيبتها ومكانتها ، حيث ظهر الإمام أحمد ابن سعيد البوسعيدي مع منتصف القرن الثامن عشر .

ولا أستطيع الادعاء بأنني قد استوفيت كل جوانب الموضوع ، وإنما حاولت أن أبرز قضية أساسية تمثل حقيقة مؤكدة من تاريخ الدولة وسياستها ، ولعل ذلك يكون مدخلاً عمليًا لكل أسباب النجاح الذي حققه اليعاربة ، ومن ثم لأسباب ضعف الدولة ونهايتها ، وهي رؤية اجتهدت فيها قدر المستطاع ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ ، ومن أصاب فله أجران .

عمان عند مقدم البرتغاليين :

لعل من أهم التجارب التي نجمت عن حركة التاريخ أن التآلف والتجانس بين عناصر المجتمع (أيّ مجتمع) تعد المقوم الأول لبناء قوته ، وبقدر ما يتحقق هذا التآلف فإنه ينعكس على قوة المجتمع ، كان ذلك قديمًا ، وقبل أن تتكون الدول القومية الحديثة ، وظل بالضرورة باقيًا في كل عصر وفي كل مجتمع .

والمتتبع لتاريخ عمان يلمس هذه الحقيقة بشكل أكثر وضوحًا ، وخصوصًا مع اقتراب القرن الخامس عشر من الانتهاء ، حيث عانت عمان من الفوضى السياسية مع اقتراب نهاية عهد النباهنة ، تلك الدولة التي عمرت خمسة قرون ، لعل القرون الثلاثة الأولى تمثل فترة قوتها ، ومع اقتراب القرن الخامس عشر بدأت عوامل الضعف تعمل في كيانها كنتاج طبيعي لانقسام الدولة إلى ممالك وكيانات ضعيفة عجلت بنهايتها .

وتشير المصادر العمانية إلى أن تاريخ النباهنة لم يكن كله ضعفًا ، وإنما كانت هناك فترات قوة ، حيث حكم عمان بعض الحكام العظام ، لعل أشهرهم فلاح بن محسن [1] .

---

(١) ابن رزيق حميد بن محمد ... الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ود/ محمد مرسي ، من مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان ١٩٧٧ ، ص ٢٥٠ .

وفي فترات قوة الدولة وهيبتها بدت قضية الوحدة الوطنية أكثر وضوحًا في ظل حاكم يتميز بقدر كبير من الحسم والإقدام ، حيث استطاع أن يجمع شمل الوطن في ظل أهداف كبيرة بشكل عاد على البلاد بقدر كبير من الازدهار والقوة ، وهو أمر طبيعي ينطبق على كل التجارب الإنسانية ، حيث يتفرغ الناس لأعمالهم في ظل هيبة الدولة .

ويبدو أن قوة الدولة في عصر النباهنة بدأت تنهار ، ومن ثم بدأت تنهار هيبة حكامها حينما أسندت مناصب ولاة الأقاليم إلى من اشتد فسادهم ، حيث أُهدرت حقوق الناس وامتهنت كرامتهم ، وانهارت قيم العدل والحق ، ومن ثم سادت روح الأنانية ، ولعل أخطر ما أصيبت به دولة النباهنة هو تسرب روح اليأس إلى نفوس الناس ، حيث راحوا يتطلعون إلى التغيير ، مستشهدين بنماذج من الأئمة العظام ، وكلما تضاعفت وطأة الحكام على رعيتهم تضاعف السخط ، بسبب الدماء التي سُفكت ، والأموال التي أُخذت ، ولذا فقد أجمع المسلمون على اختيار أبي الحسن بن عامر الأزدي إمامًا ، ثم الإمام عمر بن الخطاب الخروصي ، وهو الذي حاز أموال النباهنة (١) .

ولكن شوكة النباهنة لم تكن قد انتهت بعد ، حيث خرج سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهاني على الإمام عمر الخروصي ، ومن ثم دخلت عمان مرحلة أخرى من الحروب الأهلية الطاحنة ، إلى أن ظهر محمد بن إسماعيل الذي أجمع الناس على إمامته سنة ١٥٠٠ – ١٥٣٠ م مما أكسبه قدرًا كبيرًا من الشرعية ، مكنته من القضاء على سليمان النبهاني .

لم يكن القضاء على سليمان النبهاني كفيلاً بانهيار شوكة النباهنة تمامًا ، ومن ثم فلم تستقر الأوضاع ، بل تفاقمت الأحوال عمومًا ، وانقسم الناس وفقًا لنزعات قبلية ، وبعد مبايعة الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل إمامًا ظهرت معارضة مصحوبة باضطرابات وانقسامات قبلية ضاعفت من تردي الأحوال بشكل عام .

ونتيجة لهذه الاضطرابات تحولت عمان إلى مجموعة من المقاطعات الصغيرة يحكمها أمراء وشيوخ ... واتسمت العلاقة بينهم جميعاً بقدر كبير من التوتر ... وفي

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... تاريخ عمان ، المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠ ص ٧٥ – ٧٦ .

هذه الأثناء اتخذ البرتغاليون « هرمز » قاعدة عسكرية لهم في حين تبددت القوة العمانية بسبب الحروب الأهلية ... وفي الوقت الذي انشغل فيه العمانيون بسبب خلافاتهم عمل البرتغاليون على مضاعفة سيطرتهم على العديد من المواقع الاستراتيجية في الخليج العربي ، فاستولوا على صحار .

ويعتبر ذلك نقطة تحول خطيرة في تاريخ عمان ، حيث أصبح الساحل العماني كله تقريبًا تحت النفوذ البرتغالي وانصرف أهل عمان لخوض حروب محلية ضارية افتقدت في مجملها إلى الموضوعية ، ونجم عنها انصراف الناس عن عدوهم الحقيقي ، إضافة إلى تعطيل وسائل الحياة وتدهور الأوضاع الاقتصادية بدرجة لم تشهدها عمان طول تاريخها .

لقد سجل « البوكيرك » إعجابه الشديد بالازدهار الاقتصادي الذي كانت عليه المدن العمانية ، وخصوصًا « قلهات » وهي أول ميناء تصل إليه السفن البرتغالية ، حيث كانت تفيض بالخير الذي يأتي إليها من الداخل كما أضاف « البوكيرك » عن « قلهات » أنها ميناء عظيم للشحن البحري ، تأتي إليها السفن لتنقل التمور والخيول إلى الهند (١) .

أما عن مسقط فقد ذكر أنها مدينة كبيرة كثيفة السكان ، محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة ، وهي تطل على البحر ، وميناؤها محمي من جميع الجهات ، وهي المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز ... كما ذكر « البوكيرك » عن صحار أنها مدينة جميلة ذات منازل أنيقة ، ولاحَظَ أن الأراضي الواسعة الممتدة وراءها مزروعة بالقمح والذرة والشعير ، كما أن تربية الماشية والخيول تكثر في تلك المزارع لوجود المراعي وكثافة الأشجار (٢) .

لقد تزامن انطباع « البوكيرك » عن المدن العمانية مع الحروب الأهلية الطاحنة ، غير أن هذا الوصف لا يتناسب والمكانة الزاهرة التي كانت عليها عمان طوال فترة العصور الوسطى ، حيث كانت تمر بها التجارة الآتية من شرق أفريقيا والصين وفارس ،

---

(١) ويلسون ، أرنولد ... تاريخ الخليج ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨١ ص ٩١ - ٩٩ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ م القاهرة ١٩٨٥ ص ٦٥ - ٦٦ .

بالإضافة إلى الحاصلات المختلفة والتي جادت بها الأرض العمانية من نخيل وفواكه وقمح ، ناهيك عن مدنها ، وخصوصًا صحار ، التي أجمع الرحالة العرب والأجانب على أنها من أكثر مدن الإسلام عمارة ومالاً (١) .

وإذا كانت المشكلات الداخلية العمانية قد أدت إلى انصراف الناس عن الاهتمام بأمور معيشتهم ، مما نجم عنه تدهور ملحوظ في الحياة الاقتصادية ، فإن الغزو البرتغالي قد أجهز على البقية الباقية ، وعانت الموانىء العمانية من آثار ذلك التدهور ... وبما أن السواحل العمانية كانت أولى المناطق العربية وقوعًا تحت السيطرة البرتغالية ، فقد عمد « البوكيرك » وهو في طريقه إلى هرمز إلى حرق وتدمير كل السفن العمانية الراسية في الموانىء العمانية ، كقريات ومسقط وخورفكان ، وهكذا توافق الغزو البرتغالي مع فترة ضعف امتدت لتشمل الساحل والداخل ، مما سهل على الغزاة مهمتهم ، لذا فقد كان خليج عمان أول منطقة تشهد فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته .

وعلى الرغم من ضراوة العمليات العسكرية البرتغالية فإنها لم تَخْلُ من مقاومة عمانية باسلة ، فبعد أن استولى « البوكيرك » على قريات توجه إلى مسقط فوجدها معززة بالرجال الذين جاءوا إليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتدمير الذي حل بقريات .

لقد كانت مسقط مزودة بوسائل دفاع قوي ، إلّا أن قوة الأسطول البرتغالي دفعت البعض إلى مناشدة « البوكيرك » عدم تعريض المدينة للتدمير ، إلا أن المدافع البرتغالية انطلقت لتدمير المدينة ، فى حين اشتعلت النيران في كل أحيائها ، بما في ذلك المساجد ، في الوقت الذي انطلق فيه الجنود البرتغاليون يأسرون ما يمكنهم أسره ، بما في ذلك النساء والشيوخ والأطفال (٢) .

واللافت للنظر أن كل القوى العربية والإسلامية كانت مستهدفة ، وعلى الرغم من ذلك فلم يحدث أي قدر من التنسيق لمواجهة العدو المشترك ، بل اتسمت العلاقات بين كل القوى العربية والإسلامية بقدر كبير من التصارع ، فها هم العثمانيون يواجهون الفُرس ويعلنون عليهم الحرب ، ويستبيحون عاصمتهم ، فى حين أن المماليك من قبل

---

(١) نقولا زيادة ... الجغرافيا والرحلات عند العرب ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) ويلسون أرنولد ... مرجع سبق ذكره ص ٦٨ .

قد راحوا ينسقون مع البنادقة في محاولة للتصدي للبرتغاليين ، أما بقية القوى العربية في الخليج – كالجبور والنباهنة ومملكة هرمز – فقد اتسمت علاقاتهم بقدر كبير من الصراع ، بل راح كل منهم يتطلع لمد نفوذه على حساب الآخر ، مما بدد قوة الجميع ، وحال دون تضامنهم .

وفي الوقت الذي اتجهت فيه الأنظار إلى العدو القادم من أوروبا فإن كل القوى العربية والإسلامية لم تتفاعل مع الموقف بما يتناسب وخطورته ، بل تبددت طاقات كل القوى في أتون مشاكل فرعية افتقرت في مجملها إلى الموضوعية ، و لم تظهر تكتلات عربية بهدف مواجهة العدو المشترك ، وإنما على العكس ، فقد وصل الأمر إلى أن البرتغاليين قد استعانوا ببعض القوى المحلية للقضاء على أقوى الكيانات السياسية في الخليج ، وهم الجبور [١] .

وهكذا كان وصول البرتغاليين إلى مياه الخليج بداية لحقبة تاريخية واكبتها حالة من التصدع على كل المستويات العمانية ، وانقسمت البلاد إلى كيانات ضعيفة ، وأصبح الساحل العماني من صور إلى مسقط ثم صحار وجلفار تحت السيطرة البرتغالية .

وبينما كان البرتغاليون يجهزون على كل القوى كانت عمان تشهد مولد عهد جديد وزعامة جديدة أرسى دعائمها ناصر بن مرشد بطريقة استوعبت كل القوى العمانية .

جهود الإمام ناصر بن مرشد في توحيد القبائل العمانية :

مع بداية القرن السابع عشر كانت هناك بعض المتغيرات التي حدثت في الخليج العربي لعل في مقدمتها ظهور شركة الهند الشرقية بما تملك من إمكانيات ونفوذ استطاعت أن تبدد قدرًا من سياسة الاحتكار التي فرضها البرتغاليون على الخليج العربي ، ثم دخلت الشركة كطرف أساسي في الصراع الدائر حينما تضامنت مع الشاه عباس في طرد البرتغاليين من هرمز عام ١٦٢٢ وفقاً لاتفاقية ميناب [٢] التي أبرمت بينهما .

---

(١) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ص ٨٠ .

(٢) ميناب : منطقة ذات أهمية تقع على الساحل الإيراني عند مدخل الخليج ، لوريمر دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ج ٤ ص ١٥٢٦ .

لقد كان طرد البرتغاليين من هرمز نقطة تَحَوُّل ، مما ضاعفت من مهمة العمانيين ، حيث استقر البرتغاليون على السواحل العمانية وضاعفوا من تحصيناتها ، وخصوصًا مسقط ، التي كانت تعد من أقوى معاقلهم القوية .

لعل من أهم المتغيرات التي حدثت في عام ١٦٢٤ ظهور ناصر بن مرشد كأول إمام للدولة اليعاربة ، واستطاع أن يستوعب كل أبعاد القضية ، وأن يدرك المتغيرات الجارية من حوله ، سواء على المستوى العماني أو على المستوى الخليجي بشكل عام ، ولذا فقد أدرك ثقل المهمة ، وقَدَّرَ كل أبعادها ، حيث اعتقد أن مواجهة البرتغال لا يمكن أن تكون حاسمة إلا إذا استند إلى جبهة وطنية متراصة ومتماسكة ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه إلا إذا خاض حروبًا ضارية في سبيل توحيد كل القبائل العمانية .

وبما أن منطقة الرستاق هي التي شهدت بعث إمامة ناصر بن مرشد ، فقد كان عليه أن يبدأ بها ، ولهذا مضى ومعه جمع من أنصاره نحو قلعة الرستاق ، وكان المالك للرستاق ابن عمه مالك بن أبي العرب اليعربي ، وبعد حصار لم يدم طويلا فتحها الإمام [١] .

لقد أدرك الإمام ناصر أن العدو القابع على السواحل العمانية يضاعف من إمكانياته يومًا بعد يوم ، وأن أية محاولة لطرده مشكوك في نتائجها إذا لم يصل بالبلاد إلى حد معقول من الوحدة التي أصبحت هدفًا أساسيًّا ، فلم يكن من المعقول أن يبادر بإعلان الحرب على البرتغاليين والبلاد مقسمة [٢] .

لقد أجمعت مصادر التراث العماني على أهمية الدور الذي قام به الشيخ خميس ابن سعيد الشقصي ، الذي كان موضع ثقة أهل الرستاق ، حيث ناصر الإمام في كل خطواته ، بَدْءًا من اختياره إمامًا [٣] ، وانتهاء بالجيوش التي قادها في سبيل تحقيق الوحدة ، ومن الصعب إغفال زعامات قبلية ودينية آمنت بقضية الوحدة . وتشير مصادر التراث العمانى أيضًا إلى أهمية الدور الذي قامت به قبيلة اليحِمد ، حيث ساندت الإمام ناصر بن مرشد ماديًّا وبشريًّا ، مما كان له أكبر الأثر في تأمين الحرب في بدايتها ،

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ٩٨ - ٩٩ .. عائشة السيار ... دولة اليعاربة ص ٤٦ ، دار القدس - لبنان .

(٢) ابن رزيق ، مصدر سبق ذكره ص ٢٦٣ ، الأزكوي ، مصدر سبق ذكره ص ٩٩ .

(٣) كان ذلك فى سنة ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م .

والسيطرة على كل منطقة الرستاق ... لقد وضعت القيادة العسكرية المصالح العليا للبلاد فوق كل اعتبار ، لدرجة أن قرية (نخل) . كان مالكها سلطان بن أبي العرب (عم الإمام ناصر بن مرشد) وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت في مقدمة المناطق التي حاصرتها قوات الإمام إلى أن تم فتحها بعد عدة أيام ، وعين عبد الله بن سعيد الشقصي واليًا عليها (١) .

لقد تميزت الحروب في بدايتها بقدر من الحسم والإقدام الشديدين ، ممَّا ضاعف من إيمان الناس بقضية الوحدة ، حيث التفوا حول الإمام مؤمنين بدعوته ، وأصبحت المنافسة والسبق في معاضدة الإمام مَظْهَرَيْن جديرين بالتسجيل والملاحظة ، وكلما تحقق قدر من الوحدة تضاعف إيمان الناس بقضيتهم ، وتطلعوا إلى غد حتما سيتحقق فيه النصر على عدوهم .

ونظرًا لعدالة القضية التي تبناها الإمام ناصر وانتصاراته التي لفتت الأنظار ، فقد بادر أهل نزوى بدعوته إلى ملكها ، ولأهمية نزوى في مخططات الإمام فقد عجل بالسير إليها بنفسه ، إلا أنه – على ما يبدو – لم تكن الدعوة تمثل رغبة بعض أهلها ، الذين تصدوا لمقدم الإمام وبادروه بالحرب ، مما دفعه إلى العودة إلى الرستاق ، حيث جاءه وفد من سمائل برئاسة ملكها مانع من سنان العميري معلنًا ولاءه ومبايعته .

وبما أن نزوى كانت موضع تفكير أساسي في ذهن الإمام فقد توجه من سمائل إليها ، حيث كان لعامل المباغتة أكبر الأثر في إجماع أهلها على المبايعة .

واللافت للنظر حرص الإمام على عدم إراقة دماء المسلمين ، ولذا فقد كان يستخدم كل الإمكانات المتاحة من الإقناع والحجة ، وما كان يلجأ إلى الحرب إلا إذا حَتَّمَتْهَا الظروف ، وفرضتها المصلحة العامة لكافة المسلمين .

ما كان من الممكن أن تتحقق كل تلك الانتصارات الكبيرة إلا بمعاضدة كثير من القبائل التي ناصرت الإمام وهو يتأهب لفتح نزوى ، التي كان بعض أهلها يضمرون له الشر .

---

(١) حميد بن محمد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٢٤٦ ، وجمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ص ١٢٩ ، وعائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ص ٤٩ .

وعلى الرغم من الوقوف على نواياهم فإن الإمام نهى عن قتلهم مقابل إخراجهم [١] من وطنهم في العقر ، إلا أنهم لَجَئوا إلى مانع بن سنان في سمائل ، الذي سبق وأعطى عهدًا للإمام ، حيث ثبت أنه لم يكن صادقًا في عهده ، بل كان يتحين الفرصة للنيل من الدعوة وقائدها .

ونظرًا لثقل المهمة التي كان يقوم بها الإمام ناصر بن مرشد ، واستعدادًا لحروب قد تطول أكثر مما يتوقع ، لذا فقد كان يقيم في كل المناطق التي يدخلها حصنًا أو قلعة ، بعد أن يترك أحدًا من أتباعه لكي يواصل مهمته في ترسيخ مبادئه ومواصلة دعوته التي أخذت تنساب في كل أرجاء عمان .

لقد حققت هذه السياسة تعاظم نفوذ الإمام بالإضافة إلى عدالته التي كانت مضرب المثل ، مما دفع المترددين إلى القدوم طالبين بسط سلطته العادلة [٢] .

ومما يؤكد صعوبة المهمة التي مضى الإمام في سبيل تحقيقها كثرة الممالك التي أقيمت على مقومات قبلية ، بحيث يصعب التمييز بين القبيلة والحكومة [٣] ... لقد كان الحكم لشيخ القبيلة الذي كان يُطلق عليه تجاوزًا ملكاً أو أميرًا ، أما فكرة الدولة القومية الواحدة والإدارة المركزية فهي من المفاهيم التي لم تتعود عليها القبائل في تلك الفترة .

كان الإمام ناصر يعول أهمية كبيرة على نزوى ، ولذا فبمجرد أن فتحها فضل أن يتريث لبعض الوقت ، ويبدو أنه كان يتوقع توافد القبائل عليه تجنبًا لإراقة الدماء ، وقد تحقق ما توقعه الإمام ، حيث استجاب لدعوته أهل « منح » وسمد الشأن « وابرا » وكل المنطقة الشرقية ، ماعدا « صور » و« قريات » ، حيث كانتا تحت السيطرة البرتغالية [٤] .

ومن الظواهر اللافتة في سياسة الإمام أنه كلما حقق قدرًا لا بأس به من الوحدة راح يتريث ترقبًا لرد فعل قد يحول دون الحرب ، وقد تكون فرصة لإعادة ترتيب

---

(١) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٥ .. وسرحان بن سعيد الأزكوي .. ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٥ .

(٣) روبرت جيران لاند ... عمان مسيرًا ومصيرًا ، ترجمة محمد أمين عبد الله ص ١٩ .

(٤) نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ص ٥ – ٦ .

إن الإمام ناصر بن مرشد كان يغتنم أية فرصة لتوحيد البلاد وتقوية الجبهة الداخلية ، ولم يقبل مبدأ أنصاف الحلول ، وصولاً إلى عودة الوحدة الوطنية وترسيخ دعائم الدولة .

لقد بدأ الإمام يأخذ بسياسة النَّفَس الطويل ، ولذا فقد أخذ يبعث بالسرايا لمناقشة خصمه في مكان ما ، في حين كان يُبيت النية لخوض حرب كبيرة في منطقة أخرى ، وخصوصًا حينما أوشك أن يستكمل سيطرته على معظم أنحاء عمان ، حيث بعث بِعدَّة سرايا يقودها محمد بن غسان النزوي ، الذي صدرت إليه الأوامر لكي يتوجه إلى (الجو) ناحية البريمي لكي يفتحها تمهيدًا لدخول قرية « لوى » التي كان يقطنها الجبور الذي بَدَءُوا يغيرون على جيش الإمام كلما سنحت لهم الفرصة (١) .

لقد كانت السيطرة على منطقة « الجو » عملية سهلة ، أما « لوى » فقد استعصى فتحها على قوات الإمام بسبب تحصيناتها وكثرة المدافعين عنها ، مما اضطر محمد بن غسان النزوي إلى طلب العون من القبائل القريبة من صحار ، والتي كانت تتطلع إلى قوات الإمام وتترقب انتصاراتها بهدف التعجيل لِلِّقاء الحاسم بين العمانيين والبرتغاليين في صحار .

وبعد حصار دام أسبوعًا تمت السيطرة على « لوى » ، حيث بدأ التفكير عمليًّا في صحار .

وهكذا استطاع الإمام ناصر بن مرشد خلال سنوات حكمه التي امتدت حتى سنة ١٦٤٩ أن يحقق لعمان تماسكها ، ويؤمنها إلى حد كبير من الأخطار الخارجية التي كانت تتعرض لها ، وكانت محاولاته نحو الوحدة باعثة على تحقيق الأمل الكبير الذي افتقرت إليه البلاد منذ زمن طويل (٢) .

وينفرد الإمام ناصر بن مرشد بين أئمة اليعاربة بتصديه لهذا الكم الهائل من المشكلات ، حيث حارب في جبهتين (الساحل والداخل) .

---

(١) سرحان بن سعيد الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ، والسيابي ... عمان عبر التاريخ ، ج ٣ ص ٢٠١ .

(٢) لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ٢ ص ٦٣٣ .

وعند وفاة الإمام ناصر بن مرشد (فى ٢٣ أبريل عام ١٦٤٩) كانت كل القبائل العمانية تحت لواء واحد ... وعمومًا فإن فترة الإمام ناصر بن مرشد تُعَدُّ من أغنى وأخصب الفترات في تاريخ اليعاربة ، وأن دوره في سبيل الوحدة الوطنية يعد أساسًا لكل الانتصارات اللاحقة ضد البرتغاليين .

وإذا كانت عمان منذ عام ١٦٢٤ وحتى وفاة الإمام ناصر بن مرشد عام ١٦٤٩ قد واجهت حروبًا أهلية طاحنة ، فإنها قد أنهت مرحلة التمزق والتشتت ، حيث بدأت مرحلة جديدة من الوحدة في ظل حكومة مركزية ، وانتهى العهد الذي كانت فيه عمان مقسمة إلى دويلات صغيرة تحت رئاسة ملوك ضعاف ارتضوا أن يحكموا دويلات مزيلة بدلا من أن تقوى بلادهم وتتحد ، وبكل المقاييس فإن جهاد الإمام ناصر بن مرشد في سبيل الوحدة يعد صفحة ناصعة من الكفاح والبطولات .

الصراع العماني البرتغالي في عهد اليعاربة :

إذا كان الإمام ناصر بن مرشد قد أنجز تحقيق الوحدة الوطنية فإن الوجود البرتغالي علي السواحل العمانية كان في حاجة إلى إمكانات جديدة تفوق تلك الإمكانات التقليدية ، التي استخدمها اليعاربة في سبيل القضاء علي الحروب الأهلية والانصياع لسلطة الدولة الموحدة ... لقد وقعت كل المعارك التي خاضها الإمام ناصر بن مرشد من أجل الوحدة على اليابسة أما البرتغاليون فقد كانوا أهل بحار ، وطريقتهم في الحرب اعتمدت على السفن التي شهدت طفرة كبيرة منذ الكشوف الجغرافية ، ولذا فإن سياستهم الاستعمارية اعتمدت على احتلالهم لكثير من المدن والقلاع والحصون ، التى تقع في طريق البحار والمحيطات دون اللجوء إلى التعمق في اليابسة ، الأمر الذى لا يتناسب وإمكاناتهم البشرية .

لقد أدرك اليعاربة مقدرة عدوهم القادم من أقصى الطرف الأوروبى كدولة بحرية خاضت معارك طاحنة في سبيل الحفاظ على مكانتها ، ولذا فقد كانت العناية بالأسطول وتنمية الموارد الاقتصادية من الركائز الأساسية ، التي اعتمد عليها اليعاربة الذين طوروا أسطولهم التجاري والعسكري مستفيدين من خبرة الدول الأكثر تقدماً في هذا المجال ، وخصوصًا شركة الهند الشرقية البريطانية ، التيَ أقاموا معها علاقات طيبة مستفيدين

من تنافسها مع السياسة البرتغالية في تلك الفترة (١) قبل أن تنشأ بينهما سياسة الوفاق الجديدة .

وبمجرد أن انتهى الإمام ناصر بن مرشد من القضاء على جميع القوى المحلية ألقى بكل ثقله لمحاربة البرتغاليين ، حيث انتزع منهم صور وقريات ، إذ أسند أمر تحريرهما إلى ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي (٢) .

ويبدو أن انتزاع صور وقريات لم تكن مهمة سهلة ، فقد كان التباين واضحًا بين حجم وكفاءة القوتين المتنافستين ، بالإضافة إلى أن الوحدة الوطنية لم تكن قد تحققت بما يتناسب وأعباء المواجهة التي كانت تقتضي قدرًا كبيرًا من الانسجام والتفاهم ، خصوصًا أن البرتغاليين كانوا قد استردوا أنفاسهم منذ أن طُردوا من هرمز عام ١٦٢٢ بسبب انشغال القبائل في الحروب الأهلية ، وقبل كل ذلك فقد استجدت على مسرح الأحداث سياسة وفاق جديدة بين البرتغال وشركة الهند الشرقية ، بدءًا من عام ١٦٣٤ (٣) ، وتحولت إلى صداقة متينة وتعاون بين الطرفين ، وخصوصًا بعد أن استرد البرتغاليون استقلالهم من أسبانيا عام ١٦٤٠ (٤) .

لقد كانت المتغيرات السياسية ، سواءً المحلية أو الدولية في مقدمة عوامل كثيرة جعلت أهل عمان يناضلون في ظروف أشد قسوة ، غير أن نجاحهم في تحقيق الوحدة الوطنية بالإضافة إلى المشاعر الدينية الجياشة ، التي فاقت أية مشاعر وطنية أو عِرقية – كل ذلك كان من أهم العوامل التي جعلت عرب عمان يقبلون على التضحية بنفس راضية وبحماس ورغبة في الاستشهاد ، وهي عوامل كان يفتقدها البرتغاليون المتحصنون في الثغور العمانية .

---

(١) Miles : Countries and Tribes of the Persian Gulf Vol. II p. 196 - 197.

(٢) ابن رزيق ... حميد بن محمد الفتح في سيرة السادة البوسعيديين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٥ ... الأزكوي ، ص ١٠٦ ، والسالمي ، ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) لقد نجح البرتغاليون في إبرام هدنة مع الإنجليز عام ١٦٣٤ اقتصرت في بدايتها على إعادة العلاقات بين مستعمرات الدولتين .

(٤) د/ صلاح العقاد ... التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣ . ص ٤٥ .

إن المتتبع لحركة كفاح اليعاربة ضد البرتغال يدرك للوهلة الأولى أهمية الوحدة القومية كقضية دينية وسياسة ، وهو ما يؤكد أن الإمام ناصر بن مرشد قد أدرك تلك الحقيقة للوهلة الأولى ، ففي ظل التجزئة تنمو الخلافات وتتنامى الأحقاد إلى حد يهون فيه الوطن وتتبدد القيم الكبرى في سبيل تحقيق مصالح شخصية رخيصة .

لقد أدرك بن مرشد هذه الحقيقة بوعي شديد ، وهي أن الوحدة بمثابة الدرس الأول لتحقيق أي عمل كبير ، وبدونها تتبدد القوى وتُتاح كل فرص الوقيعة والشتات لأبناء الوطن الواحد والعقيدة الواحدة .

وقد شهدت الجبهة الداخلية تفوقًا ملحوظًا لقوات الإمام ناصر بن مرشد ساعَدَهُ في توسيع نطاق نضاله ضد البرتغاليين القابعين في المناطق الساحلية ، وكانت « صحار » محورًا استراتيجيًا هامًا في سياسة اليعاربة ، حيث ضربوا حصارًا شديدًا عليها في حين تحصن البرتغاليون داخل القلاع والحصون وراحوا يمطرون قوات الإمام بوابل من نيران مدفعيتهم ، الأمر الذى أطال أمد الحصار ، مما دفع الإمام إلى بناء قلعة في مواجهة القلعة البرتغالية .

لقد بدأ ناصر بن مرشد بدءًا من عام ١٦٤٠ يجنى ثمار الوحدة الوطنية ، فبمجرد أن علمت القبائل بحصار صحار أخذت تستنفر همم شبابها ، الذين شاركوا في بناء القلعة وخصوصًا من مناطق لوى وبات وكافة المناطق المتاخمة لصحار ، وبينما ضرب العمانيون حصارًا منيعًا حول صحار ، إذ بالإمام ناصر وقد بعث بسرية أخرى إلى مسقط بقيادة خميس بن سعيد الشقصي (١) ، وعلى الرغم من أن تلك السرية لم تحقق نتائج حماسة (٢) ، فإنها أربكت القوات البرتغالية ، سواء في صحار أو في مسقط ، مما مهد لسلسلة من الهجمات العمانية الخطيرة ضد المعاقل البرتغالية كافة .

ففي عام ١٦٤٣ م استولى الإمام ناصر بن مرشد على مدينة صحار ، وبنى بها حصنًا مقابلاً للحصن الذي يسيطر عليه البرتغاليون .

---

(١) الأزكوي ... مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، والسيابي ... مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) Kelly, J., Britain And The Presian Gulf p. 15 London 1968.

واللافت للنظر مقدرة الإمام ناصر بن مرشد السياسية ، ومعرفته الدقيقة بإمكانات عدوه ، مما أهَّلَهُ لكي يكون سياسيًّا بارعًا بالإضافة إلى مكانته الدينية ، ومقدرته البارعة على جمع شمل المسلمين لخوض معارك ضارية ضد عدوه اتسمت بالطابع الديني بالدرجة الأولى .

نجح العمانيون في الحصول على عدد من السفن المتقدمة – وكذا الذخيرة والبارود – من الإنجليز ، مما ضاعف من حجم العمليات العسكرية ضد القواعد البرتغالية [(١)] ... وعمومًا فلم يصل حجم المساعدات البريطانية لعمان بما يتناسب وإمكانات البرتغال ، مثلما حدث في اتفاقية ميناب عام ١٦٢٢ ، حيث حاربت بريطانيا بجانب الفُرس لتحرير هرمز ، أمَّا اليعاربة فقد حاربوا في ظروف مختلفة ، حيث لم يستعينوا بقوى أجنبية بالإضافة إلى أن البرتغال أثناء طردها من هرمز كانت في ظل التبعية الأسبانية ، في حين أن العمانيين قد تضاعف جهادهم بشكل ملحوظ بعد أن استردت البرتغال استقلالها [(٢)] .

وإذا كانت العلاقات العمانية البريطانية لم تحقق نتائج محددة على عهد ناصر بن مرشد ، فإنها قد تطورت بشكل ملحوظ على عهد الإمام سيف بن سلطان ، وإن كنا لا نتفق مع الراي القائل بأن الإنجليز قد شاركوا بشكل فعال في الصراع العماني البرتغالي ، وهو ما أكده أحد الباحثين الأوروبيين ، على اعتبار أن ثمة تعاطفاً إنجليزيًّا مع العمانيين ضد البرتغاليين ، ويرجع الباحث (Boxer) أسباب ذلك إلى الصراعات المذهبية بين الإنجليز والبرتغاليين . بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التي مارسها البرتغاليون ، والتي كانت تتعارض مع مصالح شركة الهند الشرقية البريطانية [(٣)] .

ويؤكد أحد الباحثين الثقات في تاريخ الخليج ، عكس هذه المقولة تمامًا ، حيث يؤكد انزعاج الإنجليز من تصاعد القوة العمانية ، وهو أمر يتعارض مع مصالحهم على طول الخط [(٤)] .. بالإضافة إلى أن إنجلترا والبرتغال قد أبرمتا معاهدة في عام ١٦٦١ [(٥)] .

---

(١) Miles : op. cit. p. 218.

(٢) مصطفى عقيل ... التنافس الدولي في الخليج العربي ، ١٦٢٢ – ١٧٦٣ م ص ١٠٩ .

(٣) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

(٤) نفس المرجع السابق .

(٥) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ . ص ٦٤٠ .

وليس من المنطقي أن يشارك الإنجليز في الحرب بجانب العمانيين وهم يعلمون أن قوة العمانيين تتعارض مع مصالحهم ، ولعل النشاط الاقتصادي الذي تمارسه شركة الهند الشرقية البريطانية قد بدد من سياسة الاحتكار الذي كان يمارسه البرتغاليون ، مما أعطى فرصة لليعاربة لكي يضاعفوا من نشاطهم التجاري والحربي ، مما أتاح لهم قدرًا كبيرًا من المنافسة ، التي أدت إلى تطوير سفنهم بسبب الاحتكاك الذي تعددت مجالاته ، سواء مع السفن الإنجليزية أو الهولندية ، أو حتى مع السفن البرتغالية نفسها .

لا شك أن التفوق البحري العماني قد أقلق الإنجليز ، وقد عبر برانجون Branguin وكيل شركة الهند الشرقية في بندر عباس عن تلك المخاوف بقوله : « إن العمانيين سيصبحون كارثة على الهند مثلما كان الجزائريون كارثة على أوروبا » (١) .

بل والأكثر من ذلك أن العلاقات قد أخذت تسوء بين اليعاربة والإنجليز الذين أصبحت سفنهم مستهدفة من قبل اليعاربة ، لدرجة أن حاكم مدراس قد كتب إلى رئاسة الشركة طالبًا المزيد من السفن والجنود تحسبًا لهجمات العمانيين (٢) .

ولعل من المناسب في هذا الصدد أن نطرح سؤالاً ؟

إذا كان اليعاربة قد أصبحوا خطرًا على الإنجليز فلماذا لم يتصدَّ الإنجليز لمواجهتهم ؟ .

كان التفوق البحري الذي بلغته دولة اليعاربة أصبح كافيًا لكي يحرك الإنجليز ويتصدوا لذلك النفوذ المتنامى ، غير أن الإنجليز انشغلوا في تثبيت نفوذهم في الهند ، وتضاعف انشغالهم بسبب تورطهم في حرب الوراثة الأسبانية ، كما أن القوة البحرية العمانية وصلت إلى درجة من القوة مع نهاية القرن السابع عشر جعلت التفكير في التصدى لها بمثابة مغامرة غير مضمونة العواقب من جانب شركة الهند الشرقية البريطانية .

لقد تطورت البحرية العمانية بشكل لافت خلال عصر سيف بن سلطان (١٩٦٢ - ١٧١١ م) مما أهَّلها لكي تكون القوة البحرية الأولى في الجزء الغربي

---

(١) Wilson, A. The Persian Gulf, p. 194.

(٢) فالح حنظل ... المفصل في تاريخ الإمارات العربية ، ص ١٠٣ .

من المحيط الهندى ، لدرجة أن سفينة الإمام سيف بن سلطان المسماه (الملك) كانت تحمل أكثر من ثمانين مدفعًا (١) .

لقد امتد صراع اليعاربة ضد منافسيهم لفترات زمنية طويلة ، تباينت فيها المواقف السياسية ، إلا أن أصعب الفترات وأخطرها هي فترة الإمام ناصر بن مرشد ، حيث كان يقاتل في سبيل تحقيق وحدة وطنية قوية كبدته قدرًا هائلاً من الجهد والوقت ، غير أن الرجل – وبكل المقاييس قد استخدم كل الإمكانات المتاحة بمهارة شديدة ، بما في ذلك المفاوضات السياسية التي لجأ إليها (فى ٣١ أكتوبر ١٦٤٨) . وعند وفاته (٢) لم يبق تحت السيطرة البرتغالية سوى مسقط ومطرح وحصن لهم في صحار (٣) .

لعل الإمام كان يود قبل وفاته لو أجهز على البرتغاليين نهائيًا في عمان ، وخصوصًا بعد أن بقيت مسقط ومطرح في يد البرتغاليين ، ولذا بعث بمسعود بن رمضان على رأس جيش بهدف تحريرهما .

لقد كانت قوات الإمام ناصر في أشد الحاجة إلى التقاط الأنفاس بعد حرب أهلية طويلة ، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن مسعود بن رمضان من الوصول إلى مطرح ، بل ضرب عليها حصارًا في وقت تفشي فيه مرض الطاعون ، وأُصيب البرتغاليون بهلع شديد (٤) .

لعلها كانت فرصة مناسبة لكي يجهز العمانيون على عدوهم الذي كان يقاتل في ظروف غاية في القسوة ، وبدت وكأنها فرصة مناسبة لكي يفرض الإمام شروطه استكمالا لمفاوضات كانت قد جرت منذ فترة وتراجع البرتغاليون عن قبولها ، غير أن القصف المستمر لقوات مسعود بن رمضان التي سيطرت على كافة التلال المحيطة بمسقط ومطرح كان عنيفًا لدرجة أربكت الحاميات البرتغالية ، فى حين كان الطاعون

---

(١) Coupland, R. East Africa and its invaders. p 69. London 1939.

(٢) أشهر الروايات أنه توفي في ١٥ ربيع الآخر ١٠٥٩ هـ ، الموافق ٢٣ أبريل ١٦٤٩ م .

(٣) ابن رزيق .. حميد بن محمد ص ٢٧٥ .

(٤) لوريمر .... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ القسم التاريخي ، ص ٦٣٥ – ٦٣٦ .

يحصد أكثر من خمسين شخصًا في اليوم الواحد [١] ... ولم يؤدِّ هذا الحصار إلى تحرير مسقط ومطرح ، وإنما نجم عنه إبرام هدنة جاءت معظم بنودها في صالح العمانيين [٢] .

لقد كان إبرام هذه الهدنة بمثابة اختبار عملي لقوة كل من الطرفين ، حيث أدرك العمانيون حالة الوهن التى وصل إليها البرتغاليون ، وفي الوقت نفسه كان الإمام ناصر ابن مرشد في أشد الحاجة لالتقاط الأنفاس وإعادة تقييم الموقف .

ومن جانب آخر فقد شعر البرتغاليون بنوع من الارتياح ، وخصوصًا قد سبق لهم أن أبرموا صلحاً مع الإنجليز ، إلا أنهم قد تورطوا في صراع جديد مع الهولنديين [٣] .

لقد تضاعفت طموحات العمانيين وأدركوا بأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحرير بلادهم من احتلال دام أكثر من مائة وأربعين عامًا ، وبوفاة الإمام ناصر بن مرشد كان العمانيون قد وضعوا أقدامهم عند نهاية الطريق بعد رحلة طويلة من الجهاد والتضحيات ... لقد امتد جهاد اليعاربة إلى جلفار (رأس الخيمة) التي كان البرتغاليون يحتلون إحدى قلاعها ، وكان الفرس بقيادة ناصر الدين الفارسي يحتلون القلعة الثانية [٤] .

وتشير كتب التراث العماني إلى أن ناصر الدين الفارسي هذا كان متحالفًا مع أعداء الإمام ، وعلى علاقات قوية مع مانع بن سنان وناصر بن قطن ، وهما من أكثر الزعامات المحلية عداوة للإمام ، ولهذا كان تحرير جلفار يمثل رغبة أكيدة في مخططات اليعاربة ، حيث قاد علي بن أحمد حملة اعتمدت على عنصر المباغتة والالتفاف بشكل

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٦٣٥ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... مرجع سابق ص ١٠٦ .
Boxer C.R. : Some aspects of the Struggle between The Gmonis and the portugeese 1650. 1730. p. 27.

(٣) د/ طارق نافع الحمداني ... دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد ١٣ ، ص ٢٧٧ .

(٤) عبد الله بن خلفان بن قيصر ... سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، ص ٤٦ ، الأزكوي ص ١٠٤ .

سريع ، مما أربك الحاميات المدافعة عن جلفار ، وعندما ضاعفت القوات العمانية من حصارها طلب البرتغاليون السماح لهم بالانتقال إلى مسقط ، وهكذا بدأت تتهاوى كل القوى المناوئة لليعاربة ، مع ملاحظة أن كل انتصار كان يفتح المجال لمزيد من التفكير في انتصار آخر ، وهكذا .

لقد استطاع سلطان بن سيف الذي ، بُويع بالإمامة (فى أبريل ١٦٤٩) بعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد أن يواصل الجهاد ، حيث سبق له أن تمرس على الأعمال الحربية ، سواء حينما قاد بنفسه العديد من العمليات الحربية بتوجيه من الإمام الراحل ، أو حينما أرسل عدة مرات إلى مسقط لتسلم الجزية المستحقة على البرتغاليين ، ولذا فقد كان الإمام الجديد أهلاً لتولي القيادة في وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى مواصلة المسيرة التي بدأها الإمام ناصر بن مرشد .

لقد أدرك الإمام الجديد أهمية الوقت كعامل هام في الإجهاز على البرتغاليين ، وخصوصًا بعد أن نما إلى علم الإمام أن عدد الجنود قد نقص نقصًا كبيرًا بسبب حملات برتغالية أُرسلت إلى الهند [١] اعتقادًا بأن موت الإمام ناصر بن مرشد يُعد سببًا كافيًا لإرجاء أي نوايا عدوانية نحو مسقط ومطرح ، غير أن سلطان بن سيف لم يمكث إلا أيامًا قليلة وأسرع متخذًا من طوى الرولة قاعدة للهجوم الشامل ، وتحصن البرتغاليون بقلاع وأسوار عالية ، حيث رابط جنودهم بعد أن ثبّتوا مدافعهم الثقيلة في كل اتجاه ، وزيادة في الحيطة حفروا خندقًا عميقًا حول الأسوار ، وعلى رءوس الجبال المحيطة بمسقط ومطرح بنوا مجموعة أبراج ثبتوا في داخلها جنودًا أشداء أخذوا يمطرون القوات العمانية بوابلٍ من نيران مدافعهم [٢] .

لقد كانت الحرب سجالاً لا قُدْرَةَ للبرتغاليين على مواجه العمانيين ، ولا قدرة للعمانيين على دخول مسقط أو مطرح ، واعتمد الجيشان على القنص كلما أُتيحت الفرصة لذلك ... لقد طالت الحرب حتى كاد سلطان بن سيف أن يتراجع عن حصاره ، وخصوصًا بعد أن نما إلى علمه أن بعض القبائل بدأت تفكر في التراجع عن مساندته .

---

(١) د/ طارق نافع الحمداني ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٩ .

(٢) ابن رزيق ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨٤ .

لقد كان هناك صراع جديد من نوع آخر بين البرتغاليين والهنود داخل المدينتين المحاصرتين ، ولعل بعض الهنود قد نجح فى تقديم معلومات على درجة كبيرة من الخطورة أفادت الإمام ودفعت بقواته إلى الدخول ، فى حين أن الحامية البرتغالية قد أُخذتْ على غِرَّة ، مما أفقدها القدرة على المواجهة ، ومن ثم كان الانهيار والاستسلام (١) .

ويبدو أن سلطان بن سيف قد استقى معلوماته التي مكنته من دخول مسقط من العرب القاطنين حولها أيضا ، ولا يُستبعد أن يكون هؤلاء العرب هم الذين زودوه بحقيقة الأوضاع داخل المدينة ، وخصوصًا أنهم كانوا فى نهاية شهر ديسمبر ١٦٤٩ ، وهو موعد رأس السنة الميلادية ، حيث لم تكن هناك ثمة مراقبة دقيقة ، مما سهل على العرب مهمة التسلل إلى داخل المدينة (مسقط) (٢) .

لقدْ حوصر البرتغاليون في قلعة الجلالي ، وبعد أن قَلّتْ مئونتهم اضطروا إلى التسليم وتركوا القلعة (٣) . وهذا ما حدث في مطرح أيضًا ، ولم يبق للبرتغاليين غير سفينتين كانتا تحاصران مسقط ، غير أن العمانيين تمكنوا من أسْرِهما ، وعندما وصلت الأخبار إلى السلطات البرتغالية في الهند أسرعت بإرسال أسطول برتغالي كبير ، ولكنه وصل متأخراً ، حيث سقطت كل القلاع ، وتهاوت كل الحصون البرتغالية (٤) .

لقد أصيب البرتغاليون بخسائر جسمية ، حيث قُتل معظم جنودهم ، وكل المحاولات التي قاموا بها في الهند لإمداد مسقط باءت بالفشل ، وبنهاية عام ١٦٥٢ لم يبق للبرتغاليين في الخليج إلا وكالتهم في « كينيج » على الساحل الشرقي من الخليج .

ولكن البرتغال لم تفقد الأمل في استعادة عمان ، حيث راحت تدعم مركزها في كينج ، بل أخذ البرتغاليون يتفاوضون مع الفُرس على السماح لهم بإنشاء وكالة تجارية في جزيرة « هانجام » غير أن الشروط الفارسية كان مبالغًا فيها ، ولذا فقد رفض البرتغاليون العرض الفارسي (٥) .

---

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذا الهجوم من خلال قصة طريفة وردت في معظم كتب التراث العماني مثل : ابن رزيق مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٦ ، ونور الدين السالمي ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ج ٢ القسم التاريخي ، ص ٦٣٦ .

(٣) ابن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٢٩٠ .

(٤) د/ طارق نافع الحمداني ... مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨١ .

(٥) مصطفى عقيل ... التنافس الدولى فى الخليج العربى ١٦٢٢ - ١٧٦٣ - ص ٢٤ .

ويؤكد لوريمر أن سبب رفض البرتغاليين للعرض الفارسي هو تطلعهم إلى الساحل العربي ، حيث كانت تبذل محاولات في هذا الصدد (١) .

لم يتوقف العمانيون عن مطاردة البرتغاليين ، حتى بعد أن لجئوا إلى وكالتهم التجارية في كينج ، والتي لم تنجُ من هجمات العمانيين الذين أخذوا يتعقبون عدوهم في الهند وشرق إفريقيا ، مما جعل خطوط الملاحة بين الوكالة التجارية للبرتغاليين في كينج وبين شرق إفريقيا والهند تبدو مستحيلة في ظل السيطرة العمانية ، واضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من كينج نهائيًا (٢) .

لا شك أن طرد البرتغاليين نهائيًا من الخليج يعد عملاً بطوليًا وصفحة مشرفة في التاريخ العماني .

إن هذه الانتصارات ما كان لها أن تتحقق إلا بوحدة وطنية متماسكة عادت على عمان في ظل إمامة سلطان بن سيف بالقوة والمنعة ، حيث أصبحت أكبر قوة سياسية وعسكرية ضاربة في الخليج ، وراحت العديد من الدول تخطب ودها ، في حين كان الأسطول العماي يجوب كل البحار الشرقية دون منافس .

ولا شك أن كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين لم يكن منعزلاً عن التيارات السياسية المتضاربة التي كان يمر بها الخليج ، والتي استوعبها أئمة اليعاربة بموضوعية شديدة ، ولذا فقد حقق اليعاربة نجاحًا هائلاً في مجال العلاقات الدولية ، ولعل عدم قيام تحالف استراتيجي بين شركة الهند الشرقية والبرتغال قد سهل مهمة اليعاربة وأتاح لهم فرصة الإجهاز على البرتغاليين .

لقد بدأت قضية التوازن أكثر أهمية فيما يتعلق بالصراع الدائر بين القوى المتنافسة في الخليج ، وخصوصًا مع اقتراب القرن السابع عشر من الانتهاء ، ففي ظل العلاقات الودية بين اليعاربة من جانب ، والإنجليز والهولنديين من جانب آخر ، كان يشتد الصراع العماني البرتغالي ، ويكثف العمانيون من هجماتهم ، بل وينتقلون بالصراع إلى المحيط الهندي وشرق إفريقيا (٣) .

---

(١) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) مصطفى عقيل ... مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٥ .

(٣) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره . ص ١١١ .

وعلى الرغم من العلاقات العمانية البريطانية قد تميزت في تلك الفترة بقدر كبير من التعاون ، غير أن ذلك لم يكن على حساب المصالح العمانية ، فحينما طلب الإنجليز من الإمام سلطان بن سيف ١٦٥٩ أن يقيموا لهم قاعدة في مسقط لا يزيد عدد أفرادها عن مائة جندي رفض الإمام رفضًا قاطعًا ، وحينما ألحّ عليه الإنجليز وحاولوا إقناعه على اعتبار أن القاعدة مجرد حامية صغيرة لخدمة شركة الهند الشرقية ذات النشاط الاقتصادي الخاص كرر الإمام رفضه لهذا المطلب (١) .

لا شك أن اليعاربة اعتمدوا على قوتهم الذاتية مع قدر من المرونة ومحاولات الاستفادة من تضارب المصالح بين القوى الأوروبية المختلفة ، مما عاد على الدولة بقدر كبير من القوة والمنعة ، وخصوصًا فيما يتعلق بقوة البحرية العمانية (٢) التي كانت تتعاظم يومًا بعد يوم فى حين كانت البحرية البرتغالية في طريقها إلى الزوال .

ويقرر المؤرخ الإنجليزي كوبلاند **Coupland** أن عمان قد وصلت إلى درجة من القوة مع نهاية القرن السابع عشر تفوق أي دولة من دول المحيط الهندي ، حيث أصبحت تخشاها الأساطيل الإنجليزية والهولندية (٣) .

لقد أدرك سلطان بن سيف أهمية العلاقات مع معظم دول المشرق الإسلامي ، سواء في الخليج العربي أو الميحط الهندي ، ومحاولة التنسيق مع كثير منها ، وخصوصًا في مجال النشاط البحرى ، ولعل ذلك ما أقلق بعض الدول الأوروبية التي حرصت على قطع العلاقات بين عمان وشرق إفريقيا من جانب ، ومحاولة الوقيعة بين عمان وأمراء الهند من جانب آخر (٤) .

ولعل ما حققه اليعاربة في مجال النشاط البحري من تفوق ملحوظ جاء نتيجة الطفرة الاقتصادية الهائلة التي تحققت مع نهاية القرن السابع عشر نتيجة دخول العمانيين

---

(١) لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) Coupland, R. : East Africa and its Invaders p. 69 London 1939.

(٣) Ibid, p. 70.

(٤) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤ .

في حلبة التجارة العالمية ، بعد أن قضوا على البرتغاليين وسياستهم الاحتكارية ، وبحلول عام ١٦٩٥ كان لدى العمانيين خمس سفن ضخمة ، على ظهرها ألف وخمسمائة رجل يجوبون كافة البحار الشرقية ، وخصوصًا موانىء الخليج الأخرى ، لدرجة أن موظف الجمارك الإيراني في بندر عباس طالب شركة الهند الشرقية بإبقاء بعض قطع سفنها لتحمي الميناء ، وأجيب إلى طلبه [١] .

وبدت دلائل عدم احتمال قيام الهولنديين والإنجليز بمساعدة الإيرانيين عسكريًا ، لكن سيرجون (حاكم بومباي) أشار على حكومته بأن مثل هذا العمل العدائي ليس مناسبًا ، وخصوصًا أن العمانيين لم يضعوا أي عقبات في وجه الملاحة والتجارة الإنجليزية .

والحقيقة أن هناك مصادر كثيرة وصفت الحروب البحرية التى كان يقوم بها اليعاربة ضد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأوروبية الأخرى التي حلت محلهم فى محاولة للسيطرة على بحار الشرق بأنها كانت نوعًا من القرصنة ، لعل هذه المصادر قد تجاهلت الجرائم البرتغالية في بحار الشرق ، حيث قام البرتغاليون بتدمير الأساطيل المحلية بالإضافة إلى ممارستهم لكثير من الأعمال الشاذة ضد البحّارة المسلمين ، وربما يرجع وصف حركة كفاح اليعاربة بأنها نوع من القرصنة إلى عدم اعتراف القوى الأوروبية بالتنظيمات السياسية العربية في الخليج ، ورفض إطلاق لفظ الدولة عليها ، وهي مغالطة لم يتنبه لها الأوروبيون ، ومن ثم لم تفرق هذه المصادر بين العمليات البحرية التي كان يقوم بها اليعاربة تحقيقًا لسيادتهم ، وبين ما كان يمارس من قرصنة فردية [٢] .

والمدهش – فى وصفهم – أن تكون القرصنة عملاً قوميًا إذا ما ارتبطت بالأوروبيين ، أمّا إذا ارتبطت بالعرب أو المسلمين فإنها تُعد عملًا من أعمال السلب والنهب ، حيث حفلت سواحل المحيط الهندي بعمليات يندي لها الجبين ، حتى وصل الأمر إلى حد إبادة بعض السفن التي كانت تقل الحجيج ، حيث دمرها البرتغاليون وكانت تحمل المئات من الشيوخ والنساء ، لماذا لم يطلق الأوروبيون على هذه الأعمال الإجرامية أنها نوع من القرصنة ؟ .

---

(١) لوريمر ... مصدر سبق ذكره ، القسم التاريخي ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) د/ جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ .

والحقيقة أن العمليات البحرية العمانية كانت تُخيف الأوروبيين الطامعين في بحار الشرق الإسلامي ، ولعل ذلك ما دفع الدول الأوروبية إلى التكتل فيما بينها ، برغم ما بينهم من منافسات لإضعاف القوة البحرية العمانية .

وبالفعل تم التوقيع على عدة اتفاقيات ، لعل أهمها اتفاقية عام ١٧٠٠ م بين كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا ، حيث قُسمت بموجبها المناطق البحرية التي ينبغي على كل منها أن تحافظ فيها على سلامة الملاحة ، فاختص الفرنسيون بالخليج العربي ، واختص الإنجليز ببحار الهند الجنوبية ، واختص الهولنديون بجنوب البحر الأحمر ، وكانت هذه الاتفاقية قد وضعت أساسًا لمقاومة ما سُمي بالقرصنة العربية (١) .

لم يكترث العمانيون للموقف الأوروبي وراحوا يتعقبون البرتغاليين في المحيط الهندي وشرق إفريقيا ، وانطلقت سفنهم لتصفية الجيوب البرتغالية على السواحل الفارسية والاستيلاء على سفنهم ومعداتهم العسكرية ، وأخيرًا اضطر البرتغاليون إلى الانسحاب من ميناء « كينج » نهائيًا لعجزهم عن الدفاع عنه ضد الهجمات العمانية ، مما أوجد نوعًا من المواجهة المباشرة بين العمانيين والفرس الذين راحوا يتضامنون مع القوى الأوروبية ضد العمانيين بحجة محاربة القرصنة ، التي لم تكن من وجهة النظر القانونية إلا نوعًا مشروعًا من الكفاح المسلح ضد قوى أجنبية استباحت لنفسها حق الغزو والاحتكار والنهب .

قد يصعب تفسير هذا التغيُّر الواضح الذي نقل عمان في ظل دولة اليعاربة من دويلات كانت مطمعًا للغزاة ، بعد أن بددتها الحرب الأهلية الطاحنة ، إلى دولة لها مكانتها الدولية ، ولها شكلها السياسي والقانوني ، ولعل ما يفسر هذا التحول تلك السياسة التي التزم بها أئمة اليعاربة ، والتي كانت كفيلة بهذا التغير الهائل ، وخصوصًا في المجالات الآتية :

١ - الوحدة الوطنية ، باعتبارها الدرس الأول الذي التزم به ناصر بن مرشد ، وبغير الوحدة لن تتحقق المصالح العليا للبلاد ، وفي سبيل الالتزام بهذا المبدأ خاض الإمام حروبًا ضارية ضد أنصار التجزئة .

---

(١) Wilson, A, op cit. p. 195.

٢ – نجاح الدولة في تكوين قوة بحرية تتناسب وطبيعة الصراع الدائر في تلك الفترة ، ولعل ما تحقق في هذا المجال كان مقدمة لإحراز انتصارات عظيمة تركت آثارها على مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية ، باعتبار أن توجهات عمان البحرية هي قضية استراتيجية ثابتة ، وبدون السيطرة على زمام البحار والمحيطات لن يتحقق التوازن المطلوب .

٣ – لقد عنى اليعاربة باستثمار كل مقومات النجاح ، وكانت الزراعة في مقدمة اهتماماتهم ، حيث شُقت الأفلاج ، وتم جلب كثير من المحاصيل الزراعية من شرق إفريقيا ، إذْ نجحت تجربة زراعتها بشكل ملحوظ ، مما أوجد رواجًا اقتصاديًّا .

٤ – عنى اليعاربة بتوفير كل مقومات النجاح لحركة التجارة بعد أن تم القضاء على سياسة الاحتكار التي ابتدعها البرتغاليون ، وباتت تجارة الخليج العربي جزءًا من حركة التجارة العالمية ، وهو ما عاد على عمان بطفرة اقتصادية هائلة .

٥ – العودة إلى الجذور العمانية الأصيلة بإبراز الهوية العربية والإسلامية ، وفي هذا المجال نجح اليعاربة بشكل ضاعف من ترابط واتحاد دولتهم .

وكلما تحقق الانسجام والتجانس بين الساحل والداخل أدى ذلك إلى تجسيد مشاعر الوحدة العربية القومية والدينية ، وعَمَّق من مقومات الترابط ، وهكذا بات المجتمع العماني وقد استنفر كل مقومات نجاحه بشكل عاد على مجالات الحياة بالخير الوفير .

لعل الازدهار الاقتصادي الذي شهدته دولة اليعاربة كان من أهم مقومات نجاحها ، ولا يمكن إغفال المتغيرات الاقتصادية مع مطلع القرن الثامن عشر ، حيث انتهت سياسة الاحتكار التي ابتدعها البرتغاليون وحل مكانها العديد من الشركات التجارية التي مارست نشاطها بقدر لا بأس به من التنافس الحر ، وأفسح المجال للقوى المحلية التي لها خبرتها السابقة في هذا المجال إلى أن تنبهت القوى الأوروبية إلى ما يمكن لهذه العناصر المحلية أن تشكله من خطورة عليها ، وراحت تتضامن مع بعضها بهدف تصفية القوى المحلية ، وتأمين مواصلاتها الاستعمارية إلى الهند [1] .

---

(١) عبد الفتاح إبراهيم ... على طريق الهند ، ص ٣٠ – ٣١ بغداد ١٩٣٥ .

واللافت للنظر أن الانتصارات التي حققها اليعاربة قد أثارت فارس ، التي كانت تتطلع إلى وراثة النفوذ البرتغالي ، ولذا فقد تعددت المواجهات العمانية الفارسية ، والتي جاءت في مصالح اليعاربة ، لدرجة أن التجارة الفارسية قد أُصيب بضرر بالغ ، وهو ما دفع بالفرس إلى الاستعانة بالقوى الأُوروبية بهدف القضاء على منافسة عمان لها (١) .

وإذا كان الإنجليز لم يتحمسوا للعرض الفارسي خوفًا على مصالحهم الاقتصادية من الأسطول العماني ، فقد توجهت فارس إلى فرنسا على عهد لويس عشر ، وتمخضت الاتصالات عن توقيع معاهدة بينهما عام ١٧٠٧ ، وكان من بين النصوص السرية التي احتوتها تلك المعاهدة أن يقوم الفرنسيون بإرسال أسطول لمساعدة فارس في غزو مسقط ، غير أن فرنسا ترددت قبل الإقدام على تلك الخطوة لنفس السبب الذي منع الإنجليز من تضامنهم مع فارس ، على الرغم من الدبلوماسية النشطة التي مارسها الفُرس في محاولة للضغط على لويس الرابع عشر ... وعمومًا فلم تسفر الاتصالات عن قيام تحالف فارسي فرنسي ، على الرغم من إبرام اتفاقية جديدة عام ١٧١٥ ، ولعل ما حال دون إقدام فرنسا على تنفيذ بنود المعاهدة الجديدة تلك الفوضى التي اجتاحت فارس ، وما ترتب عليها من غزو أفغاني لها عام ١٧٢٢ .

وتشير العديد من المصادر العمانية إلى الازدهار الاقتصادى الذي حققه اليعاربة ، وخصوصًا فى نهاية عصر سلطان بن سيف ، فقد وصل إلى درجة (كادت أن تفيض البيضاء والصفراء من أيدي الناس) وفقًا لقول السالمي (٢) .

لقد تجسدت ملامح الوحدة الوطنية في أبهى صورها ، حيث كان العدل هدفًا للراعى ونهجًا للرعية ، ولذا أقبل العمانيون على تشييد الحصون والمعاقل ، وشق الأفلاج ، وغرس الأشجار ، مما ضاعف من قوة عمان .

لقد أدركت البرتغال أن زمن الضعف العربي قد ذهب ، وأن مواجهة اليعاربة في كل مراحل الصراع قد باءت بالفشل ، وأن استمرار الوضع يعني ضياع كل الممتلكات البرتغالية على سواحل الهند وشرق إفريقيا ، ولذا فقد راحوا ينسقون مع الفرس في محاولة لقيام تحالف عسكري يكون قادرًا على ضرب اليعاربة .

---

(١) جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٧ .

(٢) السالمي – نور الدين مصدر سابق ، ج ٢ ص ٩٠ .

لقد أدرك سلطان بن سيف خطورة التحالف الجديد ، ولذا فقد عجل بضرب البرتغاليين وتصفية نفوذهم ، وقسم أسطوله إلى قسمين : أحدهما توجه إلى شرق إفريقيا ، حيث نجح في انتزاع ممباسا عام ١٦٩٨ تمهيدًا لانتزاع الجزيرة الخضراء وكلوة [١] . أما القسم الآخر من الأسطول فقد توجه إلى الهند ، حيث نجح في تدمير الوكالة البرتغالية في مانجالور على الساحل الهندي [٢] .

لقد كان للانتصارات المتكررة التي أحرزها اليعاربة أكبر الأثر في إتاحة الجو المناسب لنشر الإسلام والثقافة العربية في كل من شرق إفريقيا والهند [٣] .

ويُعد سقوط ممباسا في يد اليعاربة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الإسلام ، فمن المعروف أن البرتغاليين قد تمكنوا من خلال تواجدهم في شرق إفريقيا والهند من العمل على نشر عقيدتهم الكاثوليكية ، إلا أن اليعاربة كان لهم أكبر الأثر ، ليس في وَقْفِ النشاط الكاثوليكي فقط ، بل وإرغام البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل الذي يقع شمال خليج دلجادو .

وقد استطاع اليعاربة كسر شوكة البرتغاليين وإنهاء سيادتهم الاحتكارية ، والقضاء على مراكزهم الاستراتيجية ، سواء على الشاطىء الإفريقي أو على سواحل الهند ، ويقرر المؤرخ الإنجليزى كوبلاند **Coupland** أن التجربة العمانية مع مطلع الثامن عشر قد وصلت إلى درجة من القوة فاقت آية قوة بحرية أخرى ، حيث كانت الأساطيل الإنجليزية والهولندية تخشاها ، ويكفي أن هذا الأسطول استطاع أن يقوم بكل هذه العمليات الناجحة في هذه المنطقة الشاسعة ، وأن يجعل الرعب يملأ قلوب الجميع ، سواء سكان البلاد الواقعة على الخليج ، أو المحيط ، أو التجار الأوروبيين [٤] .

وبكل المقاييس فقد نجح العمانيون حتى نهاية عهد سلطان بن سيف الثاني ١٧١٨ م في إيجاد قدر كبير من التوازن الدولي انعكست نتائجه على كل المستويات ، وترك انطباعًا هائلا لدى الأوروبيين عن هيبة الدولة ، حيث عملت العديد من القوى

---

(١) سعيد بن علي المغيري ... جهينة الإخبار في تاريخ زنجبار ، ص ١٩٥ . الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

(٢) عائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ص ٧٦ .

(٣) عبد الرحمن بدوي ... إفريقيا والثقافة العربية ، العدد ٤٨ من مجلة نهضة إفريقيا ، السنة الرابعة ، أكتوبر ١٩٦١ .

(٤) عائشة السيار ... مرجع سبق ذكره ، ص ٧٨ .

الأوروبية على كسب ودها ، ولعل الازدهار الاقتصادي الذي وصلت إليه دولة اليعاربة ومكانة أسطولها البحري كان نتاجًا طبيعيًّا لقوة الدولة وحجم ثقلها البحري على البحار الشرقية في ظل جو مناسب من الألفة لدى عناصر السكان ، حيث انعكس ذلك على جميع مشروعات التنمية الاقتصادية في شتى مناحيها ، وبات الناس في أمن على حياتهم وأرزاقهم في ظل سياج من الهيبة والعدل .

وبعد هذا العرض نخلص إلى عدة نتائج أساسية :

١ - لقد ظلت عمان تسعين عامًا ونيفًا (١٦٢٤ - ١٧١٨ م) دولة قوية متماسكة أخذت بكل أسباب القوة ، من الاهتمام الشديد بقضية الوحدة الوطنية باعتبارها صمام الأمان ، وفي سبيلها خاض ناصر بن مرشد حروبًا ضارية ، وأُريقت دماء كثيرة ، على اعتبار أن قضية الوحدة هي مبدأ استراتيجي ثابت ، وهي أساس لكل الأعمال الكبيرة التي حققها سلطان بن سيف ، ثم من بعده سيف بن سلطان ، وبينما القوات العمانية تخوض حروبًا ضارية بهدف اقتلاع كل الحصون والقلاع البرتغالية - ليس في الخليج العربي فقط وإنما في شرق إفريقيا وسواحل الهند كافة - كانت العيون يقظة على الأرض العمانية ، لأن الدرس الذي وعاه هؤلاء الأئمة العظام كان حافزًا لمزيد من الاهتمام بتلك القضية الاستراتيجية التي لا تقبل أنصاف الحلول .

٢ - إذا كانت الوحدة هي صمام الأمان ، فإن التنمية الاقتصادية كانت ضرورة قومية ودينية ، وبغيرها يصعب ملاحقة المتغيرات السياسية ، التي فجرت قدرًا من التناقض بين العديد من القوى ، سواء المحلية منها أو الدولية ... ولذا فقد انصرف الناس إلى شق الأفلاج ، وغرس النخيل ، والأشجار ، وتحت حماية البحرية العمانية عاد الخليج العربي والمحيط الهندي يباشران دورهما الحضاري بهدف الوصول بحركة التجارة إلى أكبر معدل يتناسب وكمية المنتجات المتبادلة .

٣ - أدرك أئمة اليعاربة أن كل الآمال الطموحة يصعب تحقيقها بدون هيبة الدولة من خلال قوة عسكرية بحرية ضارية ، وفي سبيل ذلك نجح الأئمة الثلاثة : ناصر بن مرشد ، وسلطان بن سيف ، وسيف بن سلطان ، في تجسيد هذه الطموحات ، لدرجة أن البحرية العمانية باتت لها السيادة الأولى على المياه الشرقية ، وهو أمر أثار ضيق العديد من القوى الدولية ، التي أحدثها اليعاربة ، والتي كان من أهم نتائجها إيجاد قدر كبير من التوازن الدولي ، وهو أمر لا يحقق كل طموحات القوى الدولية المتنافسة في المياه الشرقية .

تصدع الوحدة الوطنية ونهاية دولة اليعاربة :

بوفاة سلطان بن سيف (الثاني) عام ١٧١٨ عادت البلاد إلى عصر الخلافات والعصبيات ، ودخلت البلاد مرحلة اتسمت بتباين الآراء ، وانقسم الناس إلى فرقتين ، إحداهما تقول بأحقية سيف بن سلطان بن الإمام سلطان بن سيف – وكان صبيًا لم يبلغ الحلم – ونادى بذلك اليعاربة وعامة الناس ، أما أهل العلم والخبرة فقالوا بإمامة مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربي [(١)] ، والذي كان موضع ثقة الإمام المتوفي ، وكان زوجًا لابنته ، ويقول الشيخ السالمي : « لقد كان أهلاً للإمامة ، لكونه ذا قوة عليها ، ولم يكن كثير علم ، ولكنه يتعلم ويسأل ، ولم يقدم على أمر إلا بمشورة العلماء » [(٢)] .

لقد وقع عامة الناس تحت تأثير المشاعر التي كان يحظى بها سلطان بن سيف ، وعلى الرغم من أن ولده سيفًا كان مفتقدًا لمقومات الإمامة – وخصوصًا أن إمامته لا تجوز في الصلاة ، على اعتبار أنه لم يبلغ الحلم ، فكيف يكون إمامًا على المسلمين ؟ – فإن كثيرًا من الناس رفضوا نصيحة العلماء واجتمعوا بسلاحهم مهددين مَنْ يقول بعكس رأيهم ، فخاف العلماء وقوع الفتنة ، ولما كان موقف العلماء يتعارض مع موقف العامة فإنهم لم يتمكنوا من مبايعة مهنا بن سلطان علنًا ، وخروجًا من الموقف الذي كان ينذر بوقوع الفتنة فقد اقترح القاضي عدي بن سليمان الذهلي حلًّا قد يحمل قدرًا من الخديعة الجائزة في مثل تلك الظروف ، حيث جاءوا بالصبي (سيف) وأوقفوه أمام جمهور المسلمين ونادى القاضي عدي « أَمَامَكُم سيف بن سلطان » [(٣)] وهو إعلان يمكن فهمه على أنه أمامكم أو إمامكم بالفتح أو الكسر ، واعتقد العامة أنهم نصبوا سيفًا إمامًا إلى أن هدأت العاصفة ، وشعر العلماء بأن لديهم من القوة ما يكفي لحسم الموقف والإعلان عن رأيهم صراحة ، فجاءوا بمهنا بن سلطان وأدخلوه قلعة الرستاق بحضور جمع من أهل الحل والعقد ، ونادوا به إمامًا حقيقيًا عام ١٧١٩ .

---

(١) تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان ، ج ٢ ، مصدر سبق ذكره ص ١١٥ .. وحميد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ص ٣٠١ .

(٢) الشيخ نور الدين السالمي ... مصدر سبق ذكره ص ١١٥ ج ٢ .

(٣) بفتح الهمزة ، أي : في مواجهتكم ، في حين سمع العامة « إمامكم » بالكسر ، أي : خليفتكم .

وعلى الرغم من الكفاءة التي تميز بها مهنا بن سلطان فإن عامة الناس قد رفضوا مبايعته ، واتسعت دائرة المعارضين بعد أن تزعمهم يعرب بن بلعرب ، الذي تعاظم نفوذه ، وأجبر مهنا على التنازل عن الإمامة بعد أن حصل على أمان بسلامته ومن معه ، إلا أن يعرب أمر بقتله ومن معه من عمومته وأصحابه وشيعته (١) .

* * *

---

(١) حميد بن رزيق ... مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠٢ ... والأزكوي ... مصدر سبق ذكره ص ١١٤ .

المصادر والمراجع

التي اعتمدت عليها تلك الدراسة

١ – أرنولد ويلسون ... الخليج العربي ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، نشر وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .
٢ – أنور عبد العليم ... ابن ماجد الملاح ، العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب .
٣ – أبو عبد الله محمد بن بطوطة ... تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الأمصار ، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٣ .
٤ – بانيكار ك . م ... آسيا والسيطرة الغربية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .
٥ – ج.ج. لوريمر ... دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ٧ مجلدات ، ترجمة مكتب ديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧ .
٦ – د. جمال زكريا قاسم ... الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ، القاهرة ١٩٨٥ .
٧ – الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٥ .
– دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ١٧٤١ – ١٨٦١ ، القاهرة ١٩٦٧ .
– جون كلي (مترجم) ... بريطانيا والخليج ١٧٩٥ – ١٨٧٠ مجلدان ، سلطنة عمان ١٩٧٩ .
٨ – حميد بن محمد بن رزيق ... الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ودكتور محمد مرسي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان .
٩ – سالم بن حمود السيابي ... عمان عبر التاريخ ، سلطنة عمان ١٩٨٦ ، أربعة مجلدات .
١٠ – سرحان بن سعيد الأزكوي ... تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، (وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠) .
١١ – سعيد بن علي المغيري ... جهينة ، الإخبار في تاريخ زنجبار ، تحقيق عبد المنعم عامر ، (وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان) ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

١٢ - د/ صلاح العقاد ... التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٨٣ .
١٣ - صالح أوزبران (مترجم) ... البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي ، ترجمة د/ عبد الجبار ناجي ، البصرة ١٩٧٩ .
١٤ - د/ طارق نافع الحمداني ... دور عرب عمان في إقصاء البرتغاليين عن الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، العدد الثالث عشر .
١٥ - د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ... الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ١٩٦٩ .
- من وثائق الدولة السعودية الأولى في عصر محمد علي ١٧٠٧ - ١٨١٩ ، القاهرة ١٩٨٠ .
١٦ - عبد الأمير محمد أمين ... القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .
١٧ - عبد الله بن خلفان بن قيصر ... سيرة الإمام ناصر بن مرشد ، تحقيق عبد المجيد القيسي ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٧٧ .
١٨ - د/ عبد العزيز محمد الشناوي ... المراحل الأولى للوجود البرتغالي فى شرق الجزيرة العربية ، من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، المجلد الثاني ، الدوحة ١٩٧٦ .
١٩ - د/ عبد العزيز عبد الغني ... علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية في العلاقات التعاهدية ، مطبوعات إدارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٩٨٢ رقم ٢٥ .
٢٠ - د/ عبد اللطيف ناصر الحميدان ... نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ - ١٧٨١ ، العدد ١٧ من دورية كلية الآداب ، جامعة البصرة ١٩٨١ .
٢١ - فالح حنظل ... المفصل في تاريخ الإمارات العربية ، جزءان ، نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٣ .
٢٢ - د/ محمود علي الداود ... محاضرات في التطور السياسي لقضية عمان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .
٢٣ - د/ مصطفى عبد القادر النجار ... التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب ، دراسة وثائقية ، البصرة ١٩٧٤ .
٢٤ - نور الدين السالمي ... تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، (مجلدان) الطبعة الخامسة ١٩٧٤ .

٢٥ – Boxer, C.R. Some Aspecte of the Struggle between Omanis & the Portugose - AD 1650 - 1730. Proceedings of Arab Gulf centres Abu Dahabi 1979.

٢٦ – Coupland, R. East Africa and its Invaders, London 1939 -

٢٧ – Kelly, J. Britain and the persian Gulf., London 1968.

٢٨ – Miles, Countries and tribes of the persian Sulf. London

* * *

المحتـــوى

البحـــوث	الصفحة
• صورة من المجتمع الأندلسي فى عصرى الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن رشد القرطبي .	
للدكتور كمال السيد أبو مصطفى	٧ - ٤٤
• قَطْيَه « جمرك مصر الشرق فى العصور الوسطى » .	
للدكتور عادل عبد الحافظ حمزه	٤٥ - ٧٠
• حملات مانويل كومنين على بلاد المجر (١١٥١ - ١١٦٧ م) فى ضوء كتابات حنا كناموس .	
للدكتورة ليلى عبد الجواد إسماعيل	٧١ - ١٠٢
• عمائر القاهرة الدينية فى العصر العثمانى (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨ م) « دراسة تحليلية مقارنة للتخطيط وأصوله المعمارية »	
للدكتور محمد حمزة إسماعيل الحداد	١٠٣ - ١٦٤
• المصالح الفرنسية فى ميناء دمياط فى القرن الثامن عشر	
للدكتور محمد عفيفى	١٦٥ - ١٨١
• دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية .	
للدكتور محمد صابر ابراهيم عرب	١٨٣ - ٢١٧
• مملكة الزولو والتوسع الأوروبى فى جنوب إفريقيا (١٨٢٤ - ١٨٩٧ م)	
للدكتور عبد الله عبد الرازق ابراهيم	٢١٩ - ٢٥٤
• التطور المرحلى للحركة الوطنية اليمنية إبان حكم الإمام يحيى بن حميد الدين	
للدكتور فتوح عبد المحسن الخترش	٢٥٥ - ٣٠٦
• تطور العلاقات المصرية السعودية فى ضوء حرب اكتوبر ١٩٧٣ . (أكتوبر ٧٣ - مارس ١٩٧٤) .	
للدكتور عاصم محروس عبد المطلب	٣٠٧ - ٣٨٢
كتب - عرض ونقد	

الصفحة

• Lise Manniche, The Tombs of the Nobles at Luxor. The American University in Cairo Press, 1988

• مقابر النبلاء فى الأقصر ، تأليف ل. مانيشى ، مطبوعات الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ١٩٨٨ .

عرض وتحليل للدكتور علاء الدين عبد المحسن شاهين ...... ٣٨٥ - ٣٩٢

• مدخل إلى الآثار الإسلامية ، تأليف حسن الباشا .

عرض وتحليل للدكتور ربيع حامد خليفة .... ٣٩٣ - ٣٩٦

• أوراق الملباوى بين المذكرات والذكريات

عرض وتحليل للدكتور أحمد الشربينى .... ٣٩٧ - ٤٠٣

• • •

SOCIÉTÉ ÉGYPTIÈNNE D'ÉTUDES HISTORIQUE

(CAIRO)

المجلة التاريخية المصرية

EGYPTIAN HISTORICAL REVIEW

VOL : 37

1990